السياب

بقلم
مدحي صالح

ليس اقسى ، سيداتي سادتي (*) ، من اختلاط التكريم بالاستنزاف الا ان يبلغ هذا الاختلاط حد استنزاف ميت ، وحد البحث عن جاه في جثة شاعر مات هملا بلا جاه ، وحد تعريف شاعر لم يجد الدرب الى تعريف نفسه ، الا من خلال الحاجة ، ومد اليد الندية مستجدية ـ تحت الشموس الاجنبية ـ منة الغرباء ... وكلنا أدباء وشعراء ونقاد يوم لم يمش وراء نعش السياب غير اربعة رجال، ساروا بالبقية الباقية من جراحات شاعر ، فتلقاه منهم حفار القبور بلا احتفال .. وذلك لان السياب لم يجد من ينتفع بجنازته ، حينذاك، فيستثمر الموكب ، ويعليقدر الشاعر وشأن الشعر فيمهرجان ـ ويلوح لي اننا لا نجيد حتى حمل الموتى الا في المناسبات ...

لكن وليكن فانها سنة الحياة ، وطبيعة الاحداث ، وجوهر التاريخ ، ومبدأ التطور ، الذي يظل ـ اضف الى ما عندك من تعريفات ـ حاضرا يستنزف التاريخ ، واحياء يستنزفون الموتى ويقتاتون على الاموات ...

وبعد فهذه ملاحظات خاطفة ، جنبتها وسائل واساليب البحث التقليدية ، وذلك لانني لم اجد حاجة الى ان اعرف غير ما اعرف عن السياب ، قلّ هذا الذي اعرفه او اكثر سواء ...

وجنبت هذه الملاحظات اسلوب الدراسة الاكاديمية ، بكل ما تتصف به الاكاديمية من اناة ، وهدوء ، وحسن تبويب ، واستقصاء .. وجعلتها محض ملاحظات ـ وربما كل هذا اعتذار عن عدم صبري على البحث والتنقيب وملاحقة دقائق وتفصيلات الاحداث . او ربما ـ وهذه خاطرة منهجية ـ لاننا نعرف السياب جيدا ، فلم يبعد به عنا زمن بعد ، ولم يبتعد عنه منا الاهتمام ـ واننا هنا ـ افترض ـ لكي نعطي رأينا في السياب .. وهو اليوم ـ شئنا ام ابينا ـ تراث ، وزاد تقوى لمسافر اذا اختلطت معالم الدرب ، وناء المسافر باعباء وتاه .. وكل انسان مسافر ، والهوية ـ ظن ما شئت ـ تكت في قطار ...

والقضية ـ ان توخيت حكمة وشئت نفعا ـ قضية انتفاع بهذا السياب كتراث ، وكأصدق شاعر ـ مع البياتي عبد الوهاب ـ منذ ابتنى ابو جعفر المنصور بغداد ...

ولا سبيل الى انتفاع بتراث الا من خلال تحديد مواقف متلاحقة، وتعيين علاقات مستمرة ، وفق مقتضيات الحاضر ومستلزمات روح العصر ، بل السنة ، بل الشهر ـ وانك لا تنزل النهر مرتين قال القدماء ... وهذا ما لا اخاله ممكنا الا من خلال استئناف الحكم الادبي ، وتأييد هذا الاستئناف ، بعيدا عن الاحكام النهائية القطعية، وبعيدا عن محاولة صب الشاعر في تعريف ، يتجمد عليه فيحيله الى مومياء لا ينتفع بها قادم من مستقبل الا بالقدر الذي يستدل منه انها كانت انسانا ...

اذن فهذه ملاحظات ذاتية ، وانطباعات وتصورات خاصة ، لا ادعي لها مطابقة لواقع الحال مطابقة وضعية الا بمقدار التطابق الحاصل بين زراعة الهيل في اشتباكات عروق الزنجبيل ، وزراعة الهيل فعلا ، وبستنة ، وحقيقة ، وبين الزراعتين من الفرق أهوال ، وبون شاسع يتلاشى ـ اعترف ـ كلما اوغلت في المستقبل ، رافضا الماضي ، ومتحررا من الحاضر .. لكنك ، مثل السياب ، لا قدرة لك على مثل هذا الرفض ، ومثل هذا التحرر الا ضمن حدود تطلع ، تحوكه اللهفة ، وتخيطه التصورات ، ويزهو به خيال باذخ في دولة الاحلام : حيث الناس سواسية مثل اسنان المشط ، وحيث لا فضل لرجل على رجل الا بالقدرة على لملمة الرؤى في عبارة ، يموت الغيث فيها عطشا ، وتموت البيادر جوعا ، ونظل شعرا آتيا ابد الدهر من مستقبل لم يأت منه بعد الا الشاعر الشاعر ، وحيث افضال السياب عميمة هناك :

ففي الشاطئين اخضرار
وفي المرفأ المغلق تصلي البحار

والسياب ، دعونا نستبق سطورا الى النهاية ، سفينة وبحر وسندباد ، اختلطت عليه هدايات النجوم فتاه ، وتجمدت من حوله امواه الابحر وسط اليمّ فجاع واكل الشراع ..

وأنت أنت هل تأكل شراعا اذا اشرفت على الموت جوعا وايقنت من الهلاك وسط اليمّ منشدا :

انا ما تشاء انا الحقير
صباغ احذية الغزاة وبائع الدم والضمير
سحقا لهذا الكون اجمع وليحل به الدمار
مالي وما للناس ؟ لست ابا لكل الجائعين
واريد ان اروى واشبع من طوى كالاخرين
فلينزلوا بي ما استطاعوا من سباب واحتقار
لي حفنة القمح التي بيدي ودانية السنين

ولك ان شئت ان تعلك ورودا خشية الجوع وتلهيا قبل ان تأكل الشراع ، ولك ان تفعل ما شئت ، وافعل ما تشاء ، الا حكايات النساء، ويحضر الشاعر في حضرة الشعراء مثلما يحضر الوالي في حضرة الاولياء ، ويحضر البصري بحضور البصري كلما عاد الى البصرة سندباد بحكايات .

على ان هناك من يذهب مذهب اللائم العاتب ومذهب القائل : انه قد اكل ما لا ينبغي ان يؤكل ـ وهنالك المبرر العاذر الذاهب مذهب الواقعي القائل : وما عليه ان اكل الشراع بعد ان طال به وسط اليمّ انتظار ، وبعد ان مسه من ملوحة البحر ، وايقن من تعذر الابحار ومن الهلاك ...

ونحن ـ لا اسفا ـ لانها تحصيل حاصل ووافع راهن ـ واقعيون في حالة واحدة ، وهي حالة الخيبة واليأس من بلوغ الحالة المثل

(*) نص خطبة القيت في نادي جامعة البصرة تلبية لدعوة وزارة الاعلام العراقية وتكريما لذكرى السياب السادسة ...

والمثال ... ونحن ابدا ذلك الانسان ، ينكمش مندحرا ويبرر الانكماش تبريرا معسولا يصير فيه الاندحار حكمة ، والتدهور واقعية وتحصيل حاصل لا مناص ـ وتلك مكابرة .. والانسان حيوان مكابر ـ ان كان لا بد من تعريف جديد للانسان ... رب اغفر للسياب ، فان يكن قد اكل شراعا بعد ان تقطعت به الاسباب وسط اليتم ، ووسط ظلموت اوجاع المرض والاملاق والضياع ، فهناك الف الف سندباد مزيف ، لا أبحر واحد منهم من البصرة ، ولا عرف دوخة البحر وورطة الاسفار، ويحدثون الناس عن اهوال اعصار البحار في بغداد ...

وهناك الف الف سندباد مزيف ، يأكلون النوتية قبل الابحار.. رب اغفر للسياب ، وارحمه ما تطاول عليه بطرون بلوم او عتاب ، فقضاياه قضايا شاعر احبنا واخلص الحب وأحب العراق :

غنيت ترتيك الحبيبة

وحملتها فانا المسيح يجر في المنفى صليبه ...

فماذا عليه لو شطب سطورا من قصيدة «الاسلحة والاطفال» نزولا عند رغبة البائعين نسورهم في بيروت للغرباء ...

وكان ـظن لا تبخل بظنـ ان باع سمسار نسرا مهيض جناح ليعين النسر على ثمن الدواء ...

وظن ظن ما شئت ، يظل في الذمة اعتراف وهو : اننا تخلفنا عن حمل السياب حيا وميتا ، وجئنا اليوم لكي يحملنا السياب ... واليكم بعض السياب :

بدأت مرحلة ازهار ذابلة واساطير ، وهي مرحلة بواكير استواء شعر السياب في ١٤ـ٢ـ١٩٦٤ بدعاء على امرأة لانها ـربماـ تعرت له عاطفيا ، واستدرجته الى كتابة قصيدة ، واختفت متضاحكة ، او قل ـان شئتـ صدته زاهدة ، او متدللة ، او راغبة في مزيد من ناعم كلام قد يرقى الى كثير في عوالم التصورات والاحلام ، لكنه ـ وحين تحين الحقيقة ـ لا يرقى شبرا واحدا ، بقروي ساذج الى اسلوب ومستلزمات ومفهوم الحب عند نساء الفن ترف الحواضر ، وشهدن ولو لا عن كثب بفخ الحياة ـ وتستنزف المترفات الفقراء من الرجال مثلما يستنزف المترفون الفقيرات من النساء : حقيقة مؤبدة في الناس : ما دام الناس طبقات .. ويظل الدعاء بالموت كل حيلة هذا الشاعر ، هذا القروي الطيب القلب هذا السياب :

واذا هلكت غدا فلا تجدي
قبرا ومزق جلدك الذئب
والبوم يملأ عشه نتفا
من ثغرك المتعفر النخر
ويداك مثقلتان بالحجر
وليبق من دمك الخبيث غدا
روح تعشش فوقه الغرب
تأوي الصلال الى جوانبه
غرثى ويعوي تحته الكلب

وانتهت هذه المرحلة في ٢٠ـ٦ـ١٩٤٨ بركض في المقابر ، كبداية هزيمة ، وعلامة انهزام بعد الخيبة بلون من تجريد بدائي ساذج لا يخلو من طفولة بريئة من كل ما قد يكون استشفاف تصوف ، او تأمل فلسفة ، او استلهام اساطير :

شعورنا بللها المطر
ويرشف القمر
منها الى ان يقبل السحر
فركض في المقابر
نظل كل شاعر
وكل من عبر

وامتدت بين هذه البداية وهذه النهاية ثلاث علامات اندحار جهيرات، وثلاث ضجات عذاب هذا الشاعر ، هذا المندحر ، هذا السياب : توجع محروم ، وتطلع شاعر ، وخيبة مخفق ـ ومزيج من مرارة الخيبة ، ولهفة التطلع ، وآلام الاوجاع : اوجاع اشتعالات الروح روح القدس في جسد هذا العاثر الحظ ، هذا السياب .

وكان بين بداية «ازهار ذابلة» ونهاية «اساطير» نساء تعرين عاطفيا للشاعر واستدرجنه الى ان يكتب فيهن ديوان شعر ما يحن له بعد ذلك ـمتفضلاتـ ان يحسد الديوان .

يا ليتني اصبحت ديواني
لأفر من صدر الى ثان
فدمت من حسد افول له
يا ليت من تهواك تهواني

واعجبن كثيرا بالاسلوب الذي حسد به الديوان . واحسب ـيقيناـ ان اقضية الدهر ، وموت السياب ، وهذا الاحتفال ، مفريات قد حولت هذا الاعجاب الى ذات السياب حتى ـولـ ان شئت دراية مرحلة الاعتزاز بجيره كتابين على رف في اسواق بغداد ..

ويروق لي ان اميز هنا بين نوعين من التعرية ونوعين من النساء ـ وبالنساء ابدأ :

هناك امرأة تلعب مع من تحب ، وتحب الذي تلعب معه ، وتتزوج الذي تحب ، جامعة امجاد اللهو والاهواء وحب الأبد ـ ولم تكن في سماوات السياب ابان اشتعال نار فتنة «ازهار ذابلة» و«اساطير» من هذا النمط امرأة .. وهناك امرأة تلعب مع الموهوب النابه ، وتحب المسكين الحالم ، وتتزوج الأبله الفافل ..

وكان من عثرة حظ السياب ووفرة حظ الشعر أن لعب دور المسكين الحالم ، وذلك لانه لم يكن في حدود امكانيته الضئيلة ـشخصية وغير شخصيةـ عشاقا نابها موهوبا .. وانما كان بدائي اساليب ، يعتمد التوجع والاستصراخ واظهار آيات السقم والنحول والسهر كوسائل استمالة ، وكل هذه وسائل باليه لا تلائم مزاج عشاقة متطورة في القرن العشرين ... ومسكينة مسكينة من ترضى لنفسها تدجينا بمثل هذه الاساليب ..

واخفق السياب في تحقيق احلام العاشق الجسور المندفع مثلما اخفق في تحقيق احلام السياسي الطموح المتطلع .

وتظل القضية في الحالين قضية موهبة ومزاج ، وفضية شاعر حاول تطلعا الى حب وتذهب سياسي عبر حدود تكوينه الطبقي ، فخان الحقيقة مرتين وكان لنا من الخيانتين شاعر كبير كبير ...

واريد الان ان اميز بين نوعين من التعرية بعد ان ميزت بين نوعين من النساء ، مثلا لتعرفة الاجساد تعرية البابلية من اوروك ، وممثلا لتعرية العواطف بتعرية دليلة ...

ولم يكن بين اللواتي تعرين للسياب مأمورة بارادة الهيه مثل البابلية من أوروك ، او مأجورة حسن للغواية والاغراء مثل دليلة ، وانما كن نساء ومحض نساء ... ذلك لان السياب لم يكن مثل انكيدو قويا مكينا ، ولا مثل شمشون جبارا عتيا ، ولم تكن له مثلها قضية مصيرية وجودية كبرى ... تلك القضية التي تمثلت في البابلية من أوروك وانكيدو والتي صارت اساسا لجميع الاحدوثات من نوع احدوثة شمشون ودليلة ... القضية التي ظلت ، وتظل عبر القرون كلها وحتى اخر الدنيا ، نمطا كليا ثابتا ، ممثلا لجميع جوانب القضية : قضية وجود فضية للانسان بما هو انسان وبما هو موجود بصرف النظر عن اي اعتبار او علاقة عبر حدود هذا التعريف ...

والشاعر لا يقوى على تحمل اعباء قضية ما لم تعنه عليها ثقافة وهموم وتطلعات البيئة وروح العصر ـ ولم يكن العراق هذه البيئة الملائمة لتحمل اعباء مثل هذه القضية او اي قضية على مستوى الخلق والابداع بمفهوميهما الحضاري الشامل ...

والسياب سفينة وبحر وسندباد . واصرف العبارة تنصرف وفق هواك وكيفما تشاء ...

وتبارك السياب .

مدني صالح